ظهور حركة الشباب السود لمناهضة العنصرية في تونس بعد ثورة 14 جانفي 2011

منصور الحمروني
مها عبد الحميد

وَحْدَها القضايا المشروعة و العادلة الملتصقة بالإنسان تظل عصيّة على الوأْد و الطمس. و هي نفسها تِلْكُمُ القضايا التي أَشْكَلَتْ على فهم من اختار التموقع على ربوة التعالي و النفخ أكثر فَـــأكثر في الأنا المنتفخة أصلا، أو التموضع في الضفة المقابلة للقيم و الأبعاد الإنسانية.

الثابت أنه مُذ تسربت عدة أشكال و صور من المفاضلة و الممايَزة بين الإنسان و الإنسان على خلفية المعتقد أو الجنس أو العرق أو اللون أو النسب او الثروة او المنحدَر الجغرافي، حاول بعضهم تطويق هذا المارد داخل قمقمه في حيـــن سارع البعض الآخر الى تثبيت ذلك الوضع بـــزَرْعه في مرحلة أولى داخل النسيج المجتمعي تحت مسميات العادة و عباءة الموروث و المتواتَر و المتعاقب من السلوكات المجتمعية، ثم و في مرحلة لاحقة كان العمل على خلق مناخ نفسي و ذهني جماعي يَقفز بتلك السلوكات الى مستوى المخيال فيصبح مجرد التساؤل حول مشروعيتها او منطقيتها ضربًا من التجاوز و المساس بالمشترك و الإرث المجتمعي الذي سيحاط لاحقا ايضا بهالة من " الإعلاء " تقارب المقدس.

و لكن اللافت في المسألة كلِّها أنك لا تقدر على أن تتمالك دهشتك حينما تجد أن الضحية و المتضرر من هذه السلوكات قد انسجم بدوره و استكان الى هذا الواقع المركّب او الى هذه الحالة المفتعلة، و عندها ننتقل ضرورةً الى تِبيان ملامح هذا التباعد و الإنفصال بين طَرَفَي القضية التي ستتخذ لاحقا تسميات متناثرة كالتفرقة الاجتماعية و التمييز و العنصرية.

العنصرية كما نعلم هي رشحٌ بسيكولوجي قبل أن تكون سلوكات إجتماعية، و هي باعتبارها سقوط أخلاقي و سقوط إنساني تَلَقَّفه البعض بامتعاض عابر باعتباره إعتداءات عنصرية عابرة في لحظة انفلات نفسي و لا تركيزٍ عابرة، إلا أن مداها يتجاوز حقيقةً هذا العابر اللفظي و هذا المنفلت اللساني المصنّف عابرا ليستقر هناك بعيدا و عميقا بين تفاصيل تربية و تعليم و عادات و موروث ثقافي في غياب لافت وتام لكل تأهيل مجتمعي و لَفْتٍ إعلامي و تشريع قانوني أوجد فيما أوجد تعابيرَ شتى و سلوكات شتى بتفاصيل شتى تُحيلك رأسًا الى حقيقةِ صورةِ الاسود في المخيال الجمعي و المجتمعي العربي .

أجدني قصاد كل هذا أكرر و أعيد، دعك من تلك الهرولة " البافلوفية " السقيمة، هرولة شيوخ الفتنة و اللافطنة باتجاه ما أورد الله في كتابه او على لسان نبيه من ألا فضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى / و كأني بهم قد صنفوا سود العرب أعاجم أو هكذا هُيِّئَ لهم فهمًا، و لا عجب... /....

و أن الناس سواسية كأسنان المشط، و إن أكرمكم عند الله اتقاكم، كلما سُحب الجدال الى مَواطنَ تُمَوْضِع العربيّ في مواقع متقدمة، سوءًا، من عنصريي بني البشر...

دعك من مَنابر تنافق و أقلام ترافق و شهادات توافق ان العنصرية بين ظهرانينا لا تسكن الا مخيّلة مدّعيها و متوهميها من سود هذا الوطن العربي، سيّما في جزئه المغاربي...

دعك ممن لا زال يلُوك بضع كلمات حقوقية يُردِفُها بشيء من الصراخ و مثله من الأسف و مقداره من وهمِ أملٍ ركيك رديء في بقيةٍ باقيةٍ من ضميرٍ مواطنيّ إنسانيّ بشريّ قد ينتفض ساعةً ما في زمنٍ إفتراضيّ ما على عوالق التقزيم و التعتيم و التعويم الذي يتقن فِعله بنو يعرب تحت مسميات الحسب و النسب و الرُّتب و اللقب... و الآل و المال... و الجاه و الشاه... فما بالك بسَـــواد اللون و إن يكُ لون بلال.

إنك حينما تُوَلّي وجهك شطر الوطن العربي لتجد الفُرقة و التشرذم و التشتت السمةَ الأبرز في صورة الحال، فإنه يمكنك ساعتها ان تدّعي فهم بعضٍ من بعضِ صمتنا نحن معشر السود حِيالَ حقٍّ يُسلَب و كرامةٍ تُهدَر و مواطنةٍ تُصادَر...
نحن وِلْدانُ هذه الحالة المستعصية على العقل العربي فضلا عن الضمير العربي... نحن نِتاج هذا الشعب بمشكلاته و ملامحه و إفرازاته.
هذا الشعب الواحد الممزق في تونس و مصر و ليبيا و السودان و سوريا و لبنان و العراق و اليمن و البحرين و... فلسطين...
نحن بعضُ وَرَثَةِ هذه النوق و الجِمال العربية بما حَمَلَتْ من صمتٍ و رضى و قَبولٍ و ركوعٍ و استكانةٍ و خنوعٍ حد التذلّل.

السود كأني بهم قد ارتضوا الصمت طريقةً مُثلى للتعبير و الاحتجاج الأخرس على واقع " لونيّ " مخجل يعنيهم...
و السود و البيض معا كأني بهم قد ارتضوا صمتًا من جنسِ صمت السود، على واقعٍ و حالٍ مخجل يَلُفّ البلد...
هذا الصمت من ذلك الصمت... لأجل ذلك كان خنوعنا إزاء قضيتنا، من خنوعهم و خنوعنا مجتمِعَيْن إزاء قضية الوطن الكبرى و الأهم...

قضية الوطن أكبر من كل القضايا، و صمتنا نحن السود إزاء قضية الوطن إجابةٌ على ذلك السؤال الكبير الي يؤرقنا:
ما سر كل هذا الصمت ؟
ما الذي يخفيه كل هذا الصمت ؟
لماذا يعطي السود انطباعا أنهم غائبون عن الخوض في شأن الوطن/ إلا من رحم ربي ؟
فهل ننتظر من الوطن أن يَسْنُدَنَا و نحن لا نكاد نُرَى أو يُسْمَعُ لنا " ضجيجٌ " في شأن البلد !
بداخلي صوت يردد صارخا في وجه السود: ظلوا على صمتكم، فالوطن قضية الآخرين... و قضيتنا أيضاً ستصبح عمّا قريب قضيةَ الآخرين .

فماذا عن العنصرية داخل الديار التونسية ؟

الحالة التونسية

للوهلة الاولى تبدو العنصرية داخل أسوار المجتمع التونسي سلوكا مستترا تقديره هو أو تقديره ذاك الآخر. سلوكات و ممارسات لا تكاد تجد لها ظاهريا مَلْمَحًا او تمظهراتٍ عيانيّة بشكل يوشك أن يقلب صيغة السؤال فيصبح كالآتي:
هل توجد فعلا عنصرية في تونــس ؟
أليس في الأمر تضخيم و تهويل و تحميلٌ لبعض السلوكات المعزولة إن وُجِدت أكثر مما تحتمل من مضامين عنصرية بكل ما يستبطنه و يحيل إليه هذا الإصطلاح من صور المهانة و الإمتهان و مصادرة الحق في الفعل و الإضافة على مستوى واجهة المجتمع فضلًا عن الحق في فرص التواجد الندّي إجتماعيا و اقتصاديا و حقوقيا و سياسيا على قاعدة المواطنة و المساواة مع باقي أفراد المجتمع الواحد ؟؟؟

الثابت أن السلوك العنصري في تونس هو على درجة من التعقيد المَشُوب بكثير من التعرّجات التى يُشْكِلُ فَهْمُها على من يتناول المسألة من خارج النسيج المجتمعي التونسي.و لست أبالغ حين أُوصِّف الأمر بأنه يقارب العَقْد الإجتماعي الذي يُلزِم الجميع بضمان تواتره جيلا بعد جيل برغم بروز محاولات من هنا و هناك للقفز فوق أسوار هذا الواقع.

و من ثمة فإن هذه السلوكات و التجاوزات العنصرية حينما يتواتر فِعْلُها و إتيانُها على مدى أكثر من قرن بدرجات متفاوتة و لكن بذات الأساليب و المفردات تقريبا، بما يجعلها تفضي الى ذات النتائج و التداعيات، لا يمكن التعاطي معها سوسيولوجيا بمنطق السلوكات المزاجية الفردية العابرة أو السلوكات المعزولة...
لذلك هي لا ترتقي فقط الى مستوى الظاهرة و لكن تتعداها لترقى الى مستوى " الطَّبْع " المجتمعي الذي لا ينفي عادة هذا السلوك في مستواه الفردي، و لكن ينفيه في طوره المجتمعي... و هذا لا يمكن ان يُفهَم حقيقة الا ضمن دراسة سوسيولوجية تغوص في أعماق تركيبة هذا المجتمع التونسي....

هذه هي عُقَدهم !
أليست هذه هي عُقد السود في تونس!
أو هكذا يصور دعاة التماسك و التجانس المجتمعي خطورة الإلتفات الى مثل هذه الدعوات و إفرادها حيزا من الاهتمام و التسويق على أنها جزء من مشكلات المجتمع العميقة و الحقيقية..

أليس مجرد الانتفاض و الاحتجاج و الرفض لهذه السلوكات " المزاجية الفردية " حسب تقدر البعض بات يُعَدُّ عند البعض دلائلَ و إرهاصاتٍ تعكس حنينا الى ان يعيش السود أبدا، دون وعي منهم، في جلباب " السيد الابيض " و ظله !
فإما صمْتٌ على هذا الأمر و قبول به باعتباره لا يعكس عقلية جماعية يشترك فيها جانب كبير من المجتمع
وإما تُهَمٌ بالاضطراب النفسي الجماعي و تُهم بالمعاناة من عقدة الاسم و اللقب و الماضي و الجذور و الحاضر و الغد، يتخبط فيها السود في هذا البلد...

لن تكون عُقَد السود أكثر إحراجا من حقيقتهم... من إشاحتهم بوجوههم عن حقيقةٍ يتفننون في محاولة طمسها...
سيظل يقيني بأن جانبا من مجتمعنا التونسي عنصريٌّ متهكم متطاوس متطاول على هذا اللون، ما دام السود في صمت الخانع القابع في ركن التردد و الاستكانة.
الوخز يكون أحيانا أكثر إيلاماً من الجَرح ...
في تقديري، و على ضوء ما تقدم فإن هناك بَوْنا شاسعا بين التباكي وبين الشعور بالألم...
التباكي هو استسلام لحالة من الضعف و الفشل و الخنوع و الرضى و القبول بوضعٍ يرفضه المرء في قرارة وعيه و نفسه...
أما الشعور بالألم و التعبير عنه بأشكال عدة فهي تصب جميعها في خانة الرفض لواقع الظلم و الاستبعاد الممنهج الذي كان الأسود و لا يزال ضحيته منذ زمن بورقيبة و نموذجه المجتمعي، مرورا بزمن " التكافؤ " المجتمعي تحت حكم بن علي، وصولا الى زمن ما بعد الثورة الذي لم نرى فيه سوى لون واحد...
نحن السود في بلدنا تونس لسنا الوحيدين المهمشة حقوقهم و أمانيهم و انتظاراتهم... و لكننا الوحيدين الذين ينضاف عامل اللون في حالتهم تلك الى عوامل اخرى تؤدي الى تغييبهم عن مشهد هذا البلد سياسيا و اداريا و ثقافيا...
رحلة إثبات الذات لا تحتاج الى نصيحة او تعيير بالاستكانة للفشل، بل تحتاج الى بارقة أمل و نقطة ضوء تقود هذه الرحلة الى مرفإٍ يحتضنها على قدم المساواة مع رحلات الآخرين...

العنصرية في تونس حقيقة واقعة برغم نفي النافين من الفريقين، من البيض و كذلك من بعض السود الذين يُنكرون بدورهم وجود هذه العنصرية إما طلبا للعيش و إما دَرْءًا لـصدامات اجتماعية و نفسية قد لا يقدرون على تحمل تداعياتها غير المحسومة مسبقا.فـالتمييز العنصري في تونس ليس وهما بل هو ممارسة تطال عموم السود و نخبتهم على حد سواء لأن كثيرا من السود الناجحين و المتفوقين أكاديميا و شهائديا و مهنيا " فاشلون " في تسيّد مواقع القرار السياسي او الريادة الاقتصادية او الاجتماعية بسبب هذا التمييز العنصري الأرعن...

إن محاولة طمس حقيقةٍ العنصرية كسلوكيات عالقة الأثر بجانبٍ كبير من السود و محاولة إظهارها كوهم و شماعة نعلق عليها نحن السود فظاعات فشلنا، هو موقف متكرر نخر أجدادنا و آباءنا و لا يزال ينهشنا نحن .
إن محاربة التمييز العنصري ليست حربا على " الابيض " و لكنها حرب على عقلية عششت على مدى زمن في ذهن جزء من هؤلاء... أما باقيهم فإخوان لنا في البلد و المواطنة و المشترك الثقافي و اللغوي و الحضاري و الجغرافي، بل إن مرضى النفوس منهم هم اخوان لنا متى شُفي جميعُهم من أدرانهم .

و لكــن ماذا لو ألقينا نظرة على حجج و إسنادات القائلين بعدم وجود العنصرية في تونس.

الحقيقة أنه مع احترامي الشديد لما يبديه هؤلاء من انتصارٍ " للمثالية " القانونية في مستوى التشريع التونسي من حيث إقراره للمساواة التامة بين عموم التونسيين بشكل ينفي وجود نصوص قانونية صريحة او ضمنية تمنع الاسود من الدراسة او العمل أو الزواج المختلط أو ارتياد الأماكن العامة.
بل إن هؤلاء أحَالوا الامر كله الى سلوكات مزاجية و انفعالية فردية و معزولة لا ترقى الى مستوى الظاهرة بما يترتب عنها من تداعيات نفسية و اجتماعية و ثقافية أيضاً...
و لعلي أقول إن تفسيرات كهذه ترحل بي بعيدا الى جنوب افريقيا سنوات الأبارتايد و الولايات المتحدة زمن الأربعينات و الخمسينات و الستينات...
فهل كنّا ننتظر مثلا ألّا يحق للسود في تونس الانتفاض على واقع التهميش و الاستثناء الممنهج إلّا في حالة وجود نص قانوني صريح يمنعهم من الدرس و العمل !

هل كان يجب ان يوجد مَنْعٌ " قانوني " للأسود من الاختلاط بالبيض دراسيا او مهنيا او " زواجيا " حتى تكون تحركاتنا من اجل استكمال مواطنتنا مشروعة و تحظى بكل التفهم و لا تلقى اعتراضا او امتعاضا !
هم يعلمون جيدا أن المسائل لا تقاس دائماً بالنصوص و التشريعات التي غالبا ما تظل حبيسة الدفاتر و المجلدات و الرفوف خصوصا في بلدان العالم المتخلف...
تونس ليست السويد او سويسرا او ألمانيا او كندا او بريطانيا حتى نحتكم الى عُلْوِيّة القانون قُصاد كل التجاوزات و الإخلالات أيًّا كانت طبيعتها أو مصدرها و مأتاها...

و هم يعلمون أيضا ان كل الانتفاضات و الثورات في مختلف أصقاع الدنيا و أزمان التاريخ حدثت اعتراضًا و رفضًا للظلم و الجَوْر الاجتماعي و السياسي و الاقتصادي المسكوت عنه في مستوى التشريع و القوانين، او المحمية بسلطتها.

تُرى كم يلزم سود هذا البلد من العناء و المعاناة و المكابدة في جَلَدٍ و في صمت !
كم يلزمنا، بـ نون الـ نحن من المهانة دون إعلاءٍ لنَفَسٍ او لصوت !
كم يلزمنا من بعض هذا و كثيرِ ذاك حتى تنتبه هامات صناع القرار و تنحنيَ قاماتهم عساها تلتقط أنّةً إنفلتت في لحظة سكون أسود، نعلمُ و لكنهم لا يعلمون ماذا يُخفي طَيَّهُ...

جميلٌ و راقٍ و موغلٌ في النبل أن يُعْلي سياسيو و حقوقيو و مثقفو بلدنا العظمة و الاستثناء و الرمزية و الكاريزما في شخص رجلٍ مثل مانديلا سيرةً و مَسيرةً بين ظَهْرانِي شعبه حين أوجد توليفة من عوالم و أزمنة غير التي نحيا، توليفةٌ هي أشبه بالوحي الذي مازج و زاوج و آخى بين ألدّ أعداء الأمس من أبناء بلده، بِيضهِم و سودهِم...

جميل و راق كل هذا، و لكـن، شريطة أن تكون ملامحه و إمكانات حدوث تفاصيله بعيدا عن الديار... بعيدا عن النبش في حقيقتنا... حقيقتنا التي قد تحتاج يوما الى مانديلا من أهل الدار حتى ينتبهَ صناع القرار في هذا البلد الى ان السود في هذه الديار باتوا " ضميرا مستترا " تقديرُهُ هم اللامرئيون في صورة هذا البلد،

او " ضميرا غائبا " وِفْق المنطق النحوي.

و لأنـه حينما يُشيح كَتَبَةُ دستور بلد ما بعد الثورة بوجـه التجاهل و اللامبالاة عن مجرد تضمين فصل او نقطة في فصل يجرّم التمييز ضد أصحاب البشرة السوداء من مواطني هذا الشعب...

و حينما " يترفع " القرار الرسمي للبلد عن تأثيث صورته بوجوه سوداء من أبناء هذا الوطن في المشهد السياسي و المشهد الديبلوماسي و المشهد الثقافي و المشهد الإعلامي و المشهد الحقوقي إلخ...

- و حينما نشير بإصبع الوجع الى معاناةٍ لمّـا تنقضي بعدُ مادام عدد من شركائنا في الوطن و المواطنة لم يستسيغوا، و لا أراهم مستسيغين، أن يتقدمهم أسود في أيٍّ من المجالات ..

حينما نقف على كل هذه النقاط و عندها، و ما عدّدنا سوى غَيضٍ من فيضِ ما أحصينا، فإن السؤال يزداد تعاظما حول معاناةٍ هي لا تعدو ان تكون سوى محصلة و نتائج آلية لسلوكات تعادل الإثم في المنظور الديني و السوء في العرف الأخلاقي و الرعونة في عرف الاستقامة.

تتفيـه (banalisation) واقع و حقيقة العنصرية من طرف المجتمع والسلطة.

يُعدّ من العادي في المجتمع التونسي أن يتعرّض الأسود لمضايقات عنصرية تمس من شخصه و كرامته مما جعله عرضة لردّات فعل متكررة ضد لونه سواء في الشارع أو في المؤسسات، و تختلف حدة هذه الإعتداءات العنصرية و كيفيتها من شخص إلى آخر. إن ما يقلق في المسألة هو تتفيـه هذه الممارسات في مجتمعنا و اعتبارها عادية تنضوي أحيانا في خانة المداعبة اللفظية البريئة لا غير، إلا أنها في الواقع قد كرّست ثقافة و ممارسة تهميش الأسود على جميع المستويات و نمّطت صورته فبات "مواطنا من الدرجة الثانية".

في التسعينات و في مفتتح الألفية الثالثة كان الفنان الأسود اللون صلاح مصباح[1] يتطرق إلى موضوع التمييز عند مروره ببعض البرامج التلفزية و الاذاعية إلا أن ملاحظاته لم تكن تؤخذ دائما على محمل الجد.

كما خصصت مجلة " jeune Afrique "[2] سنة 2004 عددين لموضوع العنصرية في شمال أفريقيا وكانت السيدة ***عفت مصباح*** إحدى المثقفات المهاجرات في فرنسا قد تحدثت عن تجربتها كمواطنة سوداء داخل وطنها و التي لم تكن تجربة وردية.

---

[1] صلا ح مصباح فنان مغني وملحن تونسي أسود عرف بصوته و أدائه الرائع إلا أنه تعرض رغم نجاحاته إلى التمييز في الميدان الفني و حرم من عديد الألقاب فقط لانه أسود و ما يميز صلاح مصباح عن العديد من الفنانين أنه إختار موسيقى غير نمطية أوكما يصنفها المجتمع في خانة الموسيقى الفلكلورية عرف بها أغلب الفنانين السود مثل السطنبالي أو المزود. بل نافس فنانين كبار في غناء و تلحين مقامات أخرى أقرب إلى التراث التونسي الغير إفريقي. ويعتبر صلاح مصباح من الفنانين المثقفين و المتسيسين. حضوره في الصفوف الأولى يوم 14 جانفي 2014 أمام وزارة الداخلية و إيقافه في الليلة الفاصلة بين 14 و15 جانفي في دهاليز الداخلية وتعرضه للضرب و القمع لم يحرك ساكنا للصحافة و لم يسل أي حبر بل لم تنزل له أي صورة مع الفنانين المتظاهرين أمام الداخلية يوم 14 جانفي 2011 علما و أنه كان مرفوعا على الأعناق من طرف أصدقائه حاملا شعارات ضد النظام.(أنظر الصورة في الملحق)

[2] Jeune Afrique : « être noire en Tunisie », 2004, N° 2270

في شهر فيفري من سنة 2007 حدث و أن تعرّضت كاتبة هذه الأسطر لهجوم عنصري من طرف أحد المواطنين في القطار القادم من مدينة قابس جنوب البلاد التونسية إلى تونس العاصمة. هذا الهجوم كان لفظيا عنيفا مس من كرامتها كمواطنة، و الشخص المعتدي كان شابا لا يتجاوز العقد الثالث من عمره "*لا تنسي أنك عبدة و لا تعتقدي نفسك في أمريكا حتى يكون لك نفس الحقوق مثلي. لا تنسي أنت عبدة و أنا حر*" يومها قررت أن أتقدم بشكوى، و في مركز الشرطة حاول المسؤول (رئيس المركز) بكل السبل أن يجد حلا عرفيا دون ان يوثق ما حصل إذ كتب في المحضر "*حضر لدينا فلان الفولاني و فلانة الفولانية نتيجة سوء تفاهم وقع حلّه*" فالمتطلع في الأرشيف بعد سنوات لن يعرف أن سبب حضور الشخص كان تتعديا عنصريا.

أدرجت هذا المثال الذي من الأكيد أنه ليس الوحيد في شكله و في محتواه بالنسبة لي أو لمواطنيّ من البشرة السوداء لأبين أن الخوض في مسألة العنصرية ضد السود في عهدي بورقيبة و بن علي كان من التابوهات إذ لم يوثق له ولم يذكر في الوثائق الرسمية.

وندرك من خلال هذا الحدث أن السلط في حد ذاتها ترفض الحديث في هذا الموضوع و التوثيق له أو ترك أثر يدل على أن بعض المواطنين السود يتعرّضون للشتم و السب العنصري من طرف مواطنيهم كما لا يتمتعون بنفس الحظوظ في النفاذ للعمل و المناصب الإدارية و الجامعية و السياسية وهذا إضافة إلى عدم تحمس السود أو ربما عدم تشجعهم لإثارة هذا الموضوع بشكل علني، و يمكن تفسير ذلك بثلاثة عناصر.

أولا، قد يعتقد الأغلبية أن الظاهرة متجذرة في السلوكيات و العقلية و أن الامر يصعب الخروج منه بل من المستحيل إيجاد حلّ له.

ثانيا، أن درجة وعي السود بعمق التهميش و خطورة العنصرية ضدهم في المجتمع التونسي قد لم تبلغ قمّتها حتى يتسنى لهم معالجة الموضوع و رفعه إلى السطح لتقع مناقشته. ثم أن معنى الوعي الجماعي للأسود كان مفقودا إذ لا يمكن التحدث عن مجموعة أو طائفة (communauté)

لدى السود في تونس بل كل مجموعة لها عادات و تقاليد المدينة او القرية التي تنتمي لها.

ثالثا حالة الإحتقان الجماعية زمن الدكتاتوريتين حالت دون التفكير في الإضطهاد الفئوي إذ أن مفهوم الوحدة و التونسة كان من إديولوجيات السلطة منذ بورقيبة للقضاء على الفسيفساء الثقافية و العرقية للشعب التونسي. ففي ظل نظام دكتاتوري[3] يفرض الخضوع و عدم إستنكار الشعب أو جزء منه لتجاوزات إجتماعية أو إدارية أو تهميش سياسي حفاظا على الصورة المزركشة التي صُدّرت عن تونس للعالم حاملة معنى واحد : تونس بلد موحد ذو شعب مسالم و مناهض لكل أشكال التمييز.

قيام الثورة في تونس و تجرأ السود على طرح إشكالية العنصرية ضدهم على الصعيد الوطني.-

المسار التاريخي لحركة الشبان السود بعد الثورة :

بعد ثورة 14 جانفي 2011 أصبح بعض الشباب السود أكثر إهتماما بإشكالية العنصرية في تونس. وأصبحوا أكثر إنتباها للتجاوزات اللفظية التي يمكن أن تمس من كرامة الإنسان الأسود في تونس بعد الثورة. طارحين وضعية السود و صورتهم في المجتمع التونسي منذ 1846[4] إلى يومنا هذا.

---

[3] Abdelhamid Maha «Les noirs en Tunisie, Citoyens de seconde zone ?» *in :* http://www.maghrebemergent.info
Le même article a été publié sur Facebook page de Maha Abdelhamid sous le titre « Bourguiba était-il raciste contre les noirs ? » 11, Juin 2013.

[4] 23 جانفي 1846 هو تاريخ إلغاء العبودية من خلال مرسوم نشره أحمد باي.

يجب أن نتفق على فكرة مهمة هو أن الأمر إستغرق خمسة أجيال بعد إلغاء العبودية لظهور فئة من الشباب المثقفين السود طرحوا مسألة العنصرية بالإعتماد على مفاهيم سوسيولوجية و تاريخية تعود إلى ثورة السود في أمريكا و جنوب إفريقيا و إفريقيا.

يوم 6 فيفري 2011 أي تقريبا 21 يوما بعد قيام الأحداث في تونس لم يستسغ المواطنون و خاصة السود منهم بعد ثورة الكرامة، تلفظ أحد الصحافيين على إحدى القنوات التلفزية التونسية الخاصة[5] بكلمة عنصرية لوصف السود "*وصفان*" هذه الكلمة التي تستمد معناها من زمن العبودية و التي أصبحت تستعمل اليوم في المجتمع التونسي لوصف السود و تعني في معناها اللغوي العبد الخادم.

و نَشر يوم 9 فيفري من نفس السنة مقالا في الفايس بوك للتنديد بهذه الألفاظ الماسة من كرامة السود[6].

و كان العديد من السود مثل ***سعدية مصباح*** مضيفة طيران، ***هدى مزيودات*** صحفية، ***منصور الحمروني*** فنان ودارس فلسفة، *لطفي الغرياني* فوتوغرافي... ينتقدون التمييز على صفحاتهم وغيرهم من السود الواعين بهذه الظاهرة وبمسألة التمييز العنصري.

" كفى حديثا عن العنصرية في الكواليس أو في هوامش الصفحات أحدثي صفحة مختصة في الموضوع لطرح الإشكالية واستدعي الناس لمناقشة ذلك"[7]

و في 10 أفريل 2011 تكونت أول مجموعة على الشبكة الإجتماعية فايس بوك للتنديد و المطالبة بإيقاف العنصرية ضد السود في تونس وسمّيت هذه الصفحة :

« Assurance de la citoyenneté sans discrimination de couleurs »[8]

كانت الصفحة بمثابة المنتدى الذي طُرحت فيه مسألة العنصرية ومنع الرق منذ 1846 والعبودية في تونس و ما خلفته من عقلية مجتمعية تصنف الأسود في أسفل الدرجات الإجتماعية. وكانت اللغة المستعملة في هذا المنتدى على الفايسبوك أساسا هي اللغة الفرنسية وكان ذلك اختيارا حتى يتمكن غير الناطقين بالعربية من متابعة المسألة و حتى يتمكن غير التونسيين من معرفة ما يحصل في مجتمع طالما طمس حقيقة التمييز ضد السود في تونس. أما النشطاء في هذه الصفحة فأغلبهم من أصحاب الشهائد الجامعية القاطنين داخل تراب الجمهورية و خارجها، و أكثر المتدخلين هم سود البشرة و لكن أيضا من غير السود التونسيين الذين أثّر فيهم النقاش و مستهم مسألة العنصرية ضد السود و كانت أغلب مداخلاتهم للإدلاء بشهادتهم عن عنصرية المجتمع و تشجيعهم للناشطين في هذه المسألة بضرورة إزالة الغطاء على العنصرية ضدّ السود في تونس أما القليل منهم فكان لتفنيد فكرة عنصرية التونسي أو للحد حسب تعبيرهم من تهويل الأمور.

وكان أكثر الناشطين في الصفحة من مختلف الاختصاصات :

أمينة مهندسة في وزارة البيئة، *عفاف* أستاذة جامعية بإيطاليا، ***زياد*** أستاذ إنجليزية بالجامعة، ***زهور*** صحافية، *توفيق* مدير معهد خاص، ***سعدية*** مضيفة طيران، **صالح** أستاذ جامعي بليون، ***فريد*** مختص في الإعلامية في هولندا[9]، لطفي فوتوغرافي، ***فادية*** طالبة، ***عزالدين*** أستاذ بمدرسة الهندسة المعمارية. و سرعان ما ضم المنتدى 300 منخرط ليصبح اللآن 1100 منخرط.

---

[5] على قناة حنبعل ظهر الصحافي و صاحب جريدة أخبار الجمهورية المنصف بن مراد مستعملا كلمة وصيف و هي كلمة في أصلها اللغوي مصنفة للأسود في عداد العبيد و الخدام وهي كلمة يرفضها خاصة أهل الجنوب التونسي.

[6] Abdelhamid, Maha : « quand un intellectuel Tunisien pète un câble» Article publié sur Facebook 9 fevrier 2011

[7] بعثت مها عبد الحميد هذه الصفحة أثرى نقاشات مع الصديق لطفي الغرياني و خاصة حبيب عايب باحث في الجغرافيا السياسية و الإجتماعية و مهتم بالشأن التونسي و الذي قال لي هذه الجملة بكل حماس يوم 9 أفريل 2011

[9] Pouessel (Stéphanie), « Les Tunisiens noirs. Entre stéréotypes, racisme et histoire : regards sur l'actualisation d'une identité « marginalement intégrée », in Stéphanie Pouessel (ed.), Noirs au Maghreb. Enjeux identitaires, Paris, Karthala-IRMC, 2012

Poussel (S) « 'Un ministre noir tunisien, yes we can ? No we don't want !' Questionnement identitaire en Tunisie post-révolutionnaire », Actes du colloque « Frontières identitaires et représentations de l'altérité » (FIRA), HAL-SHS, collection FIRA/CEAF/IRD 2012. En ligne sur Les Cahiers de l'Islam, janvier 2013.
• « Les marges renaissantes : Amazigh, Juif, Noir. Ce que la révolution a changé dans ce 'petit pays homogène par excellence' qu'est la Tunisie », L'Année du Maghreb, VIII, 2012.
Du fantasme d'une 'Tunisie tolérante' à la transition démocratique : la bombe de l'antiracisme », La Presse de Tunisie, 19.06.2012.